فى أفق السياسة العالمية

مأساة ألمانيـــا

لم يكن لألمانيا فى مستهل القرون الحديثة وجود قومى أو سياسى شبيه بما كان إذ ذاك لفرنسا و إنجلترا وأسبانيا التى توحدت قومياتها وتركزت حكوماتها ، واستعدت كل منها لتوسيع سلطانها وحدودها لا فى أوربا وحدها ، بل كذلك وراء البحار والمحيطات فى العالم الجديد — الذى كشفه الملاحون العظام من أهل تلك البلاد — غربا وشرقا فى عصر الاستكشافات . أما ألمانيا فقد ظلت كايطاليا عبارة عن اصطلاح جغرافى تنطوى تحته إمارات ودويلات متنافرة متقاطعة ما برحت تثير الفتن والحروب بين بعضها وبعض ، حتى قيض الله لها أن تتحد فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

وكان من جراء تأخر تحقيق الوحدتين الألمانية والايطالية أن فازت الدول الكبرى القديمة بنصيب الأسد فى الأراضى الجديدة التى استعمرت ، حتى إذا ما اشتد ساعد الدولتين الفتيتين وتاقت نفساهما إلى منافسة كبريات الدول لم تجدا أمامهما فى عالم الاستعمار سوى بضع لقيمات جافة ازدردتاها وهما حانقتان تتحينان الفرص وتتربصان بغيرهما الدوائر .

ومن سوء حظ الدولة الألمانية الحديثة التى أعلنها وليم ملك بروسيا فى يناير سنة ١٨٧١ وسط هتاف الأمراء الألمان فى قصر فرساى بباريس عقب انتصار الألمان فى الحرب السبعينية ، أن الوحدة التى وضع أساسها بسمرك السياسى الألمانى العظيم وحاك خيوطها بمهارة أصبحت مضرب المثل فى التفوق الدبلوماسى ، كانت وليدة الروح العسكرية البروسية المتأصلة فى نفوس البروسيين ، ونتيجة حتمية للسياسة التى ابتدعها بسمرك ولاءم فيها بين الخطط الحربية الصارمة والأساليب الدبلوماسية الحازمة الناعمة ، وهى التى عرفت بسياسة اليد الحديدية داخل القفاز الحريرى . وبفضلها خاضت بروسيا فى مدى سبع سنوات ثلاث حروب ظافرة متعاقبة : الأولى ضد الدنمرقة ، والثانية ضد

النمسا ، والثالثة ضد فرنسا . وقد اصطنع بسمرك هذه الحروب اصطناعا ومهد لها بحيدة الدول ، حتى لم تجرؤ واحدة منها كبيرة كانت أو صغيرة أن ترفع أصبعا واحدة لنجدة الدول المغلوبة على أمرها . وقد خرجت ألمانيا من هذه الحروب جميعا مزهوة بانتصارها شديده الايمان بمستقبلها وقوة سيفها الظافر .

ودخلت ألمانيا على أثر ذلك فى طور سياسى جديد تلمست فيه أسباب العظمة والتفوق ، فوجدتها متوافرة فى داخليتها : فى جيشها وفى هيئة أركان حربها الذين رسموا لها خطط النصر . ووجدتها فى علمها وفنها وأدبها وفى فلسفتها وموسيقاها ونظم بلدياتها . ولكنها افتقدتها فى الخارج حيث السبل إلى البحار والمستعمرات تحكمها بريطانيا سيدة البحار . وكانت ألمانيا فى القارة الأوربية مضيقاً عليها من كل الجهات تقريباً : فمن الغرب تقف بلاد الأراضى المنخفضة وفرنسا وإنجلترا سدًّا منيعاً فى وجهها ، ومن الشرق يجثم الدب الروسى الضخم ، ومن الجنوب يقوم أبناء عمومتهم فى إمبراطورية النمسا . فلم يكن أمام ألمانيا من سبيل إلى التوسع من هذه الجهات إلا بالعدوان والهجوم على جاراتها ، وهو أمر لم يكن سهلا ولا سائغاً بعد أن لطخت ألمانيا أيديها بدماء الالزاس واللورين اللتين اغتصبتهما من فرنسا بعد انتصارها فى الحرب السبعينية .

على أن بسمرك قد استطاع فى أول عهد الامبراطورية الجديدة أن يكبح جماح الروح العسكرية البروسية ، وأن يجنب ألمانيا وهى فى بدء وحدتها وتكوين عظمتها الصناعية والثقافية الاشتباك فى أية حرب أوربية أو استعمارية ذلك لأنه كان يعلم أن الشعب الألمانى إذا اندفع فى تيار التوسع أو الاستعمار فلا بد له من أن يصطدم بالمصالح البريطانية ، وقد يؤدى الاصطدام إلى حرب مع الانجليز تخرج منها ألمانيا خاسرة كما خرجت فى الماضى أسبانيا وبعدها فرنسا . لذلك انتهج بسمرك فى حكمه خطة كان من شأنها أن تضرم نار الحقد والتباغض بين جاراتها ومنافساتها من جهة ، وأن تكفل لألمانيا أن تمسك بميزان القوى السياسية فى القارة الأوربية من جهة أخرى . لذلك شجع فرنسا على أن تحتل تونس ، حتى يسلو الفرنسيون الالزاس واللورين ، وحتى تقع الجفوة والنفور بينها وبين إيطاليا التى كانت تطمع فى تونس ؛ ووقف يرقب النزاع المرير الذى شجر بين انجلترا وفرنسا من أجل مصر والسودان . ولما تفاقمت الحال بين روسيا وتركيا فى الحرب الروسية التركية وتدخلت بريطانيا وتعرض

السلام العام فى أوربا للخطر كانت ألمانيا هى الداعية إلى عقد المؤتمر الدولى ببرلين فى سنة ١٨٧٨ برياسة بسمرك لاعادة النظر فى المسألة الشرقية ، وكانت ألمانيا هى الدولة الكبرى التى ليس لها فى البلقان مطامع تقتضى — كما قال بسمرك — أن تراق فى سبيلها قطرة دم من ألمانى واحد .

غير أن بسمرك لم يستمر طويلا على هذه السياسة ؛ فقد جاء وقت أصبح فيه التسابق والتكالب على أشده بين الدول الأوربية بشأن استعمار إفريقية أو القارة المظلمة كما كانوا يسمونها حينذاك . وجاءت ثورة المهدى فى السودان وانسحاب القوات المصرية مؤقتاً من ربوعه فرصة سانحة أغرت الدول على التهام ما يمكن التهامه من هذه الأرض المباحة التى اعتبرتها الدول نهباً لمن غلب . فخشى بسمرك إذا واصلت ألمانيا سياسة القناعة والحذر أن يجيء وقت لا تجد أمامها بقعة خالية تستعمرها وتمدها بالخامات والقواعد اللازمة لصناعاتها ومشروعاتها الحربية البعيدة المدى . لذلك اندفع بسمرك فى سياسة الاستعمار بعد سنة ١٨٨٤ وكان فى ذلك مدفوعاً بقوة هيئة أركان الحرب التى كانت تسيطر جهراً أو سرا على مرافق الحكومة جميعاً . وكان من مظاهر ذلك النشاط الاستعمارى الناشئ أن دعت ألمانيا الدول ذوات المصالح الاستعمارية إلى عقد أول مؤتمر استعمارى دولى فى برلين سنة ١٨٨٥ وفيه سوت الدول خلافاتها بشأن استعمار إفريقية ، وتقررت القواعد التى تجب مراعاتها عند ما تزاول رياضة القنص الاستعمارى فى أحراش افريقية ! وكانت أولى هذه القواعد أن تخطر الدول بعضها بعضا بالفرائس التى يراد أن يستولى عليها ، وأن تتفق فيما بينها على دوائر نفوذ كل منها وحدودها . واستغلت ألمانيا عوامل الخلاف التى كانت ناشبة إذ ذاك بين فرنسا وإنجلترا ، وعلى ذلك سرعان ما أصبح لها فى القارة المظلمة دولة استعمارية تلى إنجلترا وفرنسا فى الأهمية؛ إذ صار لها مستعمرات فى شرق إفريقية وغربها وفى تنجانيقا والكمرون وتوجولند وبعض الجزر .

وفى سنة ١٨٨٨ اعتلى العرش الامبراطور وليم الثانى ، وكان شابا طموحا مستبدا ، أشربت نفسه حب العسكرية البروسية والطوت على إيمان صادق بمستقبل ألمانيا العظيم . ولم يطق أن يظل طويلا وراء اسم بسمرك وعظمته السياسية ، فسرعان ما أقصاه عن الحكم وجعل يصرف شؤون الدولة مستشاروه من دعاة التسليح والعظمة الحربية ، إلى أن أعلن صراحة

فى بدء القرن العشرين أن ألمانيا قد أصبحت، بفضل صناعتها واتساع نفوذها الاقتصادى، دولة عالمية ذات مصالح حيوية، وأن هذه المكانة وتلك المصالح تقتضيان حتما أن يكون لألمانيا أسطول بحرى يضارع أكبر أسطول فى العالم. وهو يعنى بطبيعة الحال الأسطول البريطانى. وكانت ألمانيا قد استردت من إنجلترا جزيرة هليجولند فى بحر الشمال، فاتخذت منها قاعدة بحرية حصينة، ثم أنشأت قناة كيل التى تصل بين البحر البلطى وبحر الشمال؛ وبذلك اتخذ الأسطول الألمانى سبيله فى البحر سربا. وما فتئت ألمانيا تمعن فى التسليح وتقيم المظاهرات البحرية فى البحر المتوسط لتعلن عن قوتها الناشئة تارة أمام طنجة وأخرى أمام أغادير على ساحل الأطلنطى فى مراكش، حتى لم يبق شك فى أن ألمانيا إنما تعد نفسها لتتحدى بريطانيا وتصل إلى تحقيق الغرضين اللذين كانت العسكرية البروسية ترمى إليهما منذ توحدت ألمانيا، وهما التفوق الحربى فى أوربا، واغتصاب السيادة البحرية والاستعمارية من بريطانيا. أما التفوق الحربى فكان أمره يسيراً هينا؛ إذ لم يبق فى أوربا بعد إذلال روسيا وانهزامها أمام اليابان سوى فرنسا، وهى وحدها لم تكن ذات خطر بسبب ما أصابها على أيدى رجال أحزابها من أزمات ومؤامرات وتقلبات لا تكاد تنقطع. وأما فى الخارج فان ألمانيا قد توغلت فى سياستها الخارجية متحدية بريطانيا تحديا صريحا؛ إذ وثقت علاقاتها بدول البلقان وبتركيا حتى يخلو لها الميدان فى الشرق ويكون الطريق أمامها بين برلين وبغداد وخليج فارس سالكا ميسورا متى دنت ساعة الفصل بينها وبين بريطانيا.

وعلى ذلك قامت الحرب العالمية الأولى. وعلقت ألمانيا مصيرها فيها على حرب خاطفة تسحق فيها قوات روسيا من الشرق وفرنسا من الغرب، ويتعذر معها على بريطانيا تعبئة قواتها وقوات إمبراطوريتها لانقاذ حليفتيها فى الوقت المناسب. وفعلا اخترق الألمان حيدة بلجيكا ولكسمبورج، وتقدموا مثل وميض البرق الخاطف داخل فرنسا ميممين صوب باريس مكتسحين أمامهم جميع القوى التى اعترضت طريقهم. وكادوا ينفذون خطتهم لو لم يقف القائد الفرنسى «جوفر» وقفته الشهيرة عند المارن فى سبتمبر سنة ١٩١٤ فاضطر الجيش الألمانى إلى الارتداد. ومن ثم لجأ الجيشان المتحاربان إلى مكابدة حرب الخنادق ببطئها وسقمها ونزولها بالانسان إلى أسفل الدرك فى المعيشة والحرب جميعاً

ثم تطورت الحرب بعد ذلك على أثر ثورة العرب فى الشرق على الأتراك حلفاء الألمان وقيام الثورة البلشفية الكبرى وانسحاب روسيا من ميدان الحرب ، وأخيراً بدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ، فرجحت كفتهم ، وأيقن كبار القواد الألمان بالهزيمة ، وذاعت بين الجنود والبحارة الألمان أنباء تقدم الحلفاء وتحسن مراكزهم إلى جانب ما كانوا يحسون من خيبة الأمل وسوء المصير الذى ينتظرهم . وكان قد نمى إليهم أيضاً خبر نجاح الثوار فى روسيا وما أحدثوه فيها من انقلاب سياسى واجتماعى خطير ، فلم يتوانوا فى انتهاز أول فرصة للعصيان والانتقاض على السلطات الرجعية التى تواصل حرباً خاسرة إرضاء لشهواتها . فما إن وصلت إلى أسماعهم مبادئ ولسون الأربعة عشر التى أعلنها فى يناير سنة ١٩١٨ حتى تحركت روح الثورة فى نفوسهم وارتضوا هذه المبادئ أساساً للصلح العتيد . وما لبثت شرارة الثورة أن اندلعت بين البحارة فى كيل وسرت منها إلى جميع الميادين . فلم ير الامبراطور بدًّا من الفرار إلى هولندة ومعه ولى عهده ، وترك زعماء الثورة يطلبون الهدنة فى الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من سنة ١٩١٨ وكانت هذه الهدنة إيذانا بالسلام بعد حرب مدمرة شملت أرجاء أوربا وآسيا ووصلت نيرانها إلى أجواز الفضاء فى الجو وإلى مسارب الأسماك فى بحار العالم ومحيطاته ، وقد ذهب ضحيتها نحو عشرة ملايين من الأنفس عدا الذين شوهتهم الحرب وأشلتهم وشردتهم أو حطمت أعصابهم فى جميع أنحاء العالم .

وجاء مؤتمر الصلح فى فرساى ، فحرّم على الألمان الخدمة العسكرية الالزامية ، وحرم التسليح إلا بالقدر الذى يحتاج إليه الجيش وقد خفضوه إلى ١٠٠,٠٠٠ جندى ، والأسطول وقد خفضوه إلى ست سفن كبيرة وستة طرادات وأربع وعشرين سفينة صغيرة أخرى لا يعمرها سوى ١٥٠٠٠ بحار . ومن شروط الصلح التى فرضوها على الألمان ، حيدة مقاطعات الرين ونزع سلاحها ، وفرض غرامة حربية باهظة قدروها فى أول الأمر بأكثر من عشرة آلاف مليون جنيه . هذا فضلا عن فقدان ألمانيا لجميع مستعمراتها وخسارتها ما يقرب من ٨٧,٠٠٠ ميل مربع من أراضيها يبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين ضمت إلى بولندة وغيرها من الدول المجاورة التى ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

فكأن الحلفاء انما أرادوا بصلح فرساى أن يعاقبوا الألمان على اقترافهم جريمة الحرب الكبرى ، ولم يلقوا بالا إلى ثورة الشعب على الطغيان العسكرى الامبراطورى ، وما كانت تطلبه الثورة وهى فى مهدها من عطف الحلفاء ومناصرتهم لزعمائها حتى يصلب عودها وتقوى على مناهضة العناصر الرجعية التى تتمثل فى الجيش وهيئة أركان الحرب .

وقادت ثورة الاشتراكية الديمقراطية فى ألمانيا بزعامة رئيسهم إبرت Ebert وتقرر دستور الجمهورية الجديدة فى ويمار سنة ١٩١٩ فخيل للناس أن ألمانيا قد انتهت أخيرا إلى عهد ديمقراطى جديد ، وأن الشعب الألمانى ستتاح له الفرصة بعد طول الانتظار ليفصح عن رأيه ويثبت استحقاقه لمكانة مرموقة بين شعوب العالم الديمقراطية . ولكن الحلفاء حين أملوا شروط الصلح كانوا قد أبقوا على كيان ألمانيا ووحدتها ولم يمسوا الروح العسكرية البروسية بسوء ، وخافوا من تفشى المبادئ الشيوعية فى أوربا فأصموا آذانهم عن نداء الثورة فى ألمانيا وجنحوا إلى جانب الرجعيين ، فجعلت هيئة أركان الحرب البروسية تعمل سرا وعلانية على إحياء الروح العسكرية القديمة ، ولبثت تتربص الدوائر بالنظام الجمهورى الديمقراطى حتى تضافرت القوى وفاز المرشال هندنبورج بانتخابه رئيسا للجمهورية . فكان انتخابه أذانا للناس بأن الجمهورية قد أشرفت على الزوال ، وأن الملكية أو الامبراطورية القديمة آتية لا ريب فيها .

وبقى هندنبورج فترة من الزمن يترجح بين الاشتراكية والملكية حتى تغلبت فى النهاية الروح العسكرية المتأصلة فى دماء القوم ، وأخذ المرشال ينحرف رويدا رويدا عن الاشتراكية ويمهد للدكتاتورية . وكانت الفترة التى رأس فيها هندنبورج ألمانيا من أرغد وأهنأ ما مر بألمانيا فى المرحلة التى تلت الحرب العالمية الأولى ؛ فقد دخلت ألمانيا عصبة الأمم على قدم المساواة مع سائر الدول الكبرى ، وأخذت تزول عنها وصمة الحرب وتبعاتها ، ثم خفت عن كاهلها أعباء التعويضات ، فدفقت على البلاد رءوس الأموال الأجنبية ، ونشطت فيها حركة الصناعة والتجارة نشاطا لم تعهده من قبل . غير أن فترة الاستجمام مع الأسف لم تطل ؛ فقد اجتاحت العالم أزمة سنة ١٩٣٠ الاقتصادية وتعرضت المؤسسات الصناعية فى البلاد للخسارة بل للافلاس . وعلى ذلك تجمعت الأسباب التى ساعدت على ظهور هتلر على رأس

حركة الاشتراكية الوطنية . وكان هندنبورج قد طعن فى السن فلم يستطع مقاومة التيار الجديد ، فأخذ انصار هتلر يتفوقون فى البلاد ويفوزون فى الانتخابات ، حتى إذا انتهت مدة رياسة هندنبورج فى سنة ١٩٣٢ ونزل إلى ميدان الانتخاب يريد تجديد انتخابه نال ١٩,٣٦٠,٠٠٠ صوت مقابل ١٣,٤١٨,٠٠٠ نالها هتلر ، ورأى الرئيس أنه لم يعد قادرا على تنحية هتلر ، فعينه مستشاراً للدولة فى يناير سنة ١٩٣٣ ومات هندنبورج فى صيف العام التالى ، فأصبح هتلر رئيسا غير منازع للدولة ، بل لقد كان كذلك فعلا قبل أن يموت هندنبورج . ومع أن الدستور الجمهورى الذى أصدرته الجمعية الوطنية فى ويمار لم يلغ رسميا فان هتلر قد جمع فى شخصه وركز فى حزبه وأعوانه السلطات الادارية والتشريعية والتنفيذية جميعاً ، حتى صار كل شىء فى البلاد لا يشتق وجوده أو يستمد بقاءه إلا منه ، حتى الكنيسة والعلم والتعليم قد طغت عليها جميعاً الفكرة النازية طوعا أو كرها . وكان فى مقدمة العقائد النازية التى بشر بها هتلر ، تأمين تفوق الجنس النوردى أو الآرى ، وقمع اليهودية والشيوعية ، وتجنيد الشباب والشعب بكامل طبقاته لخدمة النازية والدولة . وأخيراً وليس آخرا ، محو آثار معاهدة فرساى ، واستئناف العمل الذى بدأ سنة ١٩١٤ لكى تتبوأ ألمانيا مركزها الاسمى فى أوربا وبين دول العالم أجمع .

أما أهدافه الخارجية فكانت تقوم على الأخذ بمبدأ المجال الحيوى Lebensraum وهى النظرية التى لفقها هتلر للبرهنة على أن عدد سكان ألمانيا سيصل فى مدى قرن إلى ٢٥٠ مليون نفس ، وأن هذه الزيادة الهائلة يجب أن تقابلها أراض وميادين جديدة ينتشر فيها شعب الآلهة المفضل ويستثمر فيها مواهبه للقضاء على الشعوب المنحطة الأخرى !

وفكر هتلر فى المستعمرات القديمة التى كانت لألمانيا ، وهى لم تكن فى نظره إلا وديعة تسلمتها عصبة الأمم ، وعلى الحلفاء أن يردوا الودائع إلى أهلها ، فاذا تعذر عليهم ذلك فهناك مستعمرات واسعة تملكها دول من الدرجة الثانية فى الأهمية مثل هولندة والبرتغال وبلجيكا ، ويمكن تعويض ألمانيا من مستعمرات تلك الدول . وجال فى خاطر ساسة الدول الغربية من مروجى سياسة السلم بأى ثمن ، أن هتلر قد عنى حقا أن يكتفى بالمستعمرات القديمة

فأبدوا له استعدادهم لاعادة النظر فى موضوع الخامات الأولية ونظام توزيعها بين الدول .

ولكن التوسع الحقيقى الذى كان يريده هتلر للدولة العالمية المنتظرة كان طريقه من الشرق نحو بولنده وأكرانيا ورومانيا وجنوبى روسيا والقوقاز حيث سهول القمح الممتدة الشاسعة وآبار زيت البترول ومناجم الفحم والحديد وحيث معظم السكان من الشعوب الصقلبية أو المغولية التى لا تطاول الجنس الألمانى مدنية ورقيا . وأخذ هتلر يقيم علاقاته مع شرق أوربا وجنوبها الشرقى على أساس بدائى من مقايضة الحاجات بين الفريقين ، حتى لاتقوى تلك الدول على تحويل نشاطها التجارى إلى دول أخرى غير ألمانيا ، وحتى تكون اقتصادياتها مرهونة بارادة ألمانيا . وكان هتلر يرمى بسياسته إلى فرض نفوذه الاقتصادى عليها أولاً توطئة لاخضاعها سياسيا تحت سيطرته متى حان الوقت المناسب . وشبيه بهذه السياسة ما اتبعه فى اقتصاديات ألمانيا الداخلية ؛ إذ ركز إنتاجها الزراعى والصناعى جميعاً فى شركات مركزية يشرف عليها الحزب النازى . وجعل يسعى جهده فى أن تنتج ألمانيا كل ما تحتاج إليه ، حتى منتجات المناطق الاستوائية أو المدارية قد وضعها فى بوتقة التجربة تحت مجهر العلماء المختصين يحاولون إنتاجها اصطناعيا ، فيسروا له الحصول على الزيت والمطاط وبعض المنسوجات . ولم يكن غرضه من ذلك إلا إعداد ألمانيا لمواجهة أخطار الحصر البحرى متى دنت ساعة العمل .

أما الأداة التى استند إليها هتلر فى بلوغ هذه الأهداف جميعاً فهى ، كما كانت دائما فى التاريخ البروسى الحديث ، هيئة أركان الحرب ، وقد جددها هتلر ، فأنشأ إلى جانب هذه الهيئة العريقة أدوات أخرى ابتدعتها العقلية النازية الشيطانية مثل الجستابو Gestapo أو البوليس السياسى السرى ومعسكرات السجون والاغتيالات السرية ، يضاف إليها قمع جميع الحريات الشخصية وربطها جميعاً بمشيئة « الفوهرر » أو الزعيم .

وكذلك أعد هتلر فى الخارج عدته للوقت المناسب ؛ فكان دعاته يعملون لانشاء الأحزاب فى البلاد المختلفة على النسق النازى ، ويهيئون داخل هذه الأحزاب الجماعات التى عرفت بالطوابير الخامسة والسياسيين الذين عرفوا بالكويزلنج Quisling أو وزراء الضرورة النازية . ولما كان هتلر وأعوانه يعلمون

أن الحرب فى النهاية هى الوسيلة الحتمية لبلوغ أهدافهم ، فانه ما برح منذ اضطلع برياسة الدولة يزدرى النظم الديمقراطية وميثاق عصبة الأمم وسبدأ التأمين الجمعى ضد الحرب ، حتى انتهى الأمر فى سنته الأولى بانسحاب ألمانيا من العصبة ، ثم أخذ يعمل بسرعة جنونية لزيادة التسليح ، فقرر التجنيد الاجبارى سنة ١٩٣٥ وفى العام التالى احتلت الجيوش الألمانية أرض الرين وأقامت عليها الحصون والقلاع مخالفة فى ذلك كله معاهدة فرساى ومعاهدة لوكارنو . وفى سنة ١٩٣٨ ضمت النمسا إلى ألمانيا ، واعتدت على تشيكوسلوفاكيا فضمت إقليم الألمان السوديت أولاً ثم ضمتها برمتها سنة ١٩٣٩ . وكانت تشيكوسلوفاكيا مرتبطة مع فرنسا بمعاهدة الاتفاق الصغير ، فلم تقو فرنسا ولا حليفتها إنجلترا على مساعدتها بل لقد نصحتاها بأن تقبل ما فرضه الطغيان النازى عليها وأن ترفض ما تطوعت روسيا بتقديمه إليها من المساعدة الحربية . وجاء رئيس وزراء انجلترا بنفسه طائراً إلى ألمانيا و بيده حمامة السلام ، واجتمع بعد ذلك مؤتمر الدول الأربع (انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا) فى ميونيخ لاقرار طلبات هتلر وإغماد سيف الحرب فى جرابه بضعة أشهر . وقد ارتضى الحلفاء لأنفسهم ذلك الاذلال خوفاً من زحف قوات روسيا البلشفية غربا ، وانتظاراً للوقت الذى تصطدم فيه قوات هتلر بالجيش الأحمر فيتطاحن العدوان ويفنى بعضهما بعضاً ودعاة السلام فى الغرب يتفرجون عن كثب ويظنون أنهم بذلك يحسنون صنعا !

ولكن الدكتاتورين كليهما كانا من دهاقنة السياسة فى أوربا فلم ينخدعا بما أضمره لها ساسة الغرب من مكايد وما نصبوه لها من حبائل . فأما المرشال ستالين فصمم على الانتقام من دول الغرب التى أهملته فى اجتماع ميونيخ ولم تستمع إلى نصحه بشأن تشيكوسلوفاكيا ، وقرر فى دخيلة نفسه أن يدع تلك الدول تتلقى هى ضربات الحرب الأولى من ألمانيا حتى تتهيأ روسيا لمواجهة دورها بعد قليل أو كثير . وأما هتلر فانه قد عجم عود الحلفاء فى ميونيخ فلم يجد إلا قصبة مرضوضة ، فليس بهم قوة حتى على الوقوف إلى جانب حليفتهم فى ساعة شدتها ، فقرر أن يتخذ قراره التاريخى الخطير غير عابئ بحكومات الغرب المتخاذلة فى شخص تشمبرلن فى إنجلترا ودلادييه فى فرنسا .

وكانت أولى ضرباته أن اغتنم فرصة نفور ستالين من حكومات الغرب وسارع إلى الاتفاق معه على الحيدة المقبلة ، حتى لا تتعرض ألمانيا مرة ثانية

لخطر الحرب فى جبهتين متعارضتين : احداهما شرقية ضد روسيا والأخرى غربية ضد الدول الغربية . وكان أشد ما أخذه هتلر على الامبراطور السابق أنه أوقع ألمانيا فى بدء الحرب العالمية الأولى بين نارين من جيوش الحلفاء ، وأنه أراد تحقيق الغرضين البعيدى المنال لألمانيا فى وقت واحد : التفوق الحربى فى أوربا ، والسيادة فى عرض البحار ؛ فخاب مسعى الامبراطور فى الغرضين جميعا . وعلى ذلك تم لهتلر أعظم انقلاب دبلوماسى شهدته أوربا فى تاريخها الحديث ، وهو عقد الاتفاق بين روسيا وألمانيا فى أغسطس سنة ١٩٣٩ ، وكانت سياسة المحور بين برلين وروما قد تأيدت بمعاهدة التحالف بين ألمانيا وايطاليا فى مايو سنة ١٩٣٩ فلم يتردد هتلر وأركان حربه فى إعطاء الاشارة برفع الستار عن مأساة أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ وقد حالفت آلهة الحرب قوات هتلر فى السنين الثلاث الأولى من الحرب ، فعقدت له ألوية النصر فى عدة مواقع حاسمة خاطفة تبوأت على أثرها ألمانيا مركز الزعامة والسيادة فى قارة أوربا فيما عدا السويد وتركيا وسويسرا وقد نضيف إليها تجاوزا ، أسبانيا والبرتغال . ومع ذلك فقد كان لألمانيا فى هذه الدول من النفوذ الأدبى والمادى ماجعلها أيضا تحت رحمتها . ولو أن هتلر ثابر على العمل ونفذ خطته الأولى فلم يعرض ألمانيا لخطر الحرب أمام أكثر من جهة واحدة ولم يحاول إصابة الهدفين الألمانيين معا لكان مصير ألمانيا شيئا آخر غير الانحلال الذى يتهددها اليوم . ولكن الطبيعة البشرية وما جبلت عليه نفس الانسان من الأثرة والطمع والغرور قد جعلت هتلر يزهى بانتصاراته الأولى ويسئ تقدير قوى أعدائه ، فانزلق وهو فى أوج مجده يعادى أمريكا ويعلن الحرب على روسيا قبل أن تنقلب عليه ، ويحاول فى الشمال أن يدق طريقه دقا ليعبر روسيا إلى أكرانيا فالقوقاز وبحر قزوين ، ويحمل فى الوقت نفسه قائده « رومل » فى الجنوب على طرق باب الاسكندرية إلى قناة السويس فبلاد الشرق الأوسط وخليج العجم حيث يلتقى بحلفائه اليابانيين وقد اكتسحوا جنوب آسيا إلى الهند فايران . هنالك أشفقت آلهة الحظ من فداحة مثل ذلك النصر الذى لم يتح من قبل للآلهة نفسها فضلا عن البشر ، فأشاحت بوجهها عن بطلها حينئذ ، وبدأ نجم هتلر فى الأفول ، فارتد الألمان عن ستالنجراد فى الشمال ، وتراجعوا أمام العلمين فى الجنوب ، وكان ذلك بداية النهاية .

محمد رفعت